مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 5 السنة: 2020
ص: 590 - 603 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

تشظي الذات بين المركز والهامش في الرواية النسويّة الجزائرية
–رواية رجالي لمليكة مقدم أنموذجا–

The Fragmentation of the Self Between the Center and the Margin in the Algerian Feminist Novel
"My Men's Novel" Model by Malika Mokaddam—

* د. **هدى عمّاري**
Dr . Houda Amari
جامعة أمحمد بوقرة– بومرداس(الجزائر)
University Of M'Hamed Bougara –Boumerdes/Algeria
ho.amari@univ-boumerdes.dz

تاريخ الإرسال:2020/04/17	تاريخ القبول:2020/09/18	تاريخ النشر: 2020/12/25

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في قضية شغلت السرد النسوي الجزائريّ، تتعلق بهُوية المرأة في المجتمع الجزائريّ، وضعها الاجتماعيّ، همّها الإنسانيّ، وصراعها مع الآخر. وقد وقع اختيارنا على رواية رجالي لمليكة مقدم والّتي نراها تعالج موضوعات مرتبطة أشد ارتباط بواقع المرأة كالتهميش والانكسار والشّعور بالدونيّة واختزال دورها الاجتماعي وتقليص عطائها الفكري، و في مقابل مركزية الأخر على مناحي الحياة المختلفة. فجاء السرد ليقدم تشكيلا خاصا للهوية ويصور التصادم بين الأنا والأخر وفق الرؤية الفنيّة للروائيّة. مما يجعلنا نطرح الإشكال الآتي: إلى أيّ مدى استطاعت مليكة مقدم الكشف عن تشظي الذات بين المركز والهامش؟

الكلمات المفتاحية : السرد النسوي، الرواية الجزائرية، الهوية، المركزية، صراع الآنا بالأخر.

Abstract :

This study aims at examining an issue that has interested the Algerian Feminist narrative. This issue is concerned with the importance of women in the Algerian society, their social status, their human concern, and their struggle with the other. (My Men's Novel) by Malika Mokaddam was chosen as a model because it deals with topics that are most closely related to the reality of women, such as marginalization, refraction, feeling inferior,

* هدى عمّاري ho.amari@univ-boumerdes.dz

reducing their social role and reducing their intellectual giving, as opposed to the centralization of the other in different aspects of life. The narrative provides a special composition of identity and depicts the clash between the ego and the other in accordance with the artistic vision of the novel. This leads to raise the problem: to what extent has Malika Mokaddam been able to reveal the fragmentation of the self between the center and the margin?
Keywords : Feminist narrative, Algerian novel, identity, centrality , conflict of the ego with the other .

1– مقدمة

شكلت تيمة الهوية علامة فارقة استوقفت الكتابة النسويّة الّتي تعرضت لجدال طويل حول ماهيتها واحتدمت المواقف بين قبولها ورفضها، حتّى وصل الأمر إلى عدم الاتفاق على تسمية واحدة " الأدب النسويّ، الأدب النسائيّ، الأدب الأنثويّ ومع ذلك تمكنت الأديبّة الكاتبة أن تكسر هذه الإشكالات وتثبت جدارتها في التعبير عن آلامها وآمالها واتخذت من الكتابة مطية للبوح عن عوالمها الخاصة، تكاد تتفق أغلب الدراسات المهتمة بالخطاب الروائيّ النّسويّة الجزائريّة على أنّ الروائيّة الجزائرية استطاعت اقتحام عالم الكتابة وتعبير عن ذاتها، هذا الحكم ينطبق على الأعمال المكتوبة باللّغة العربيَّة أو باللسان الفرنسي، وهذا مثّل شكلا من أشكال التحرر من الهيمنة الذكوريّة الّتي احتكرت ميادين الإبداع لعقود متتالية.

ولقد وجدت الروائيّة في الكتابة متنفسا لتصوير ملامح الهوية في ظلّ منظومة من القيم سريعة التغير، تكشف عن الذات بين سلطة المركز التي تمارس سيطرتها وواقع الذات الأنثوية الّتي تعاني التهميش. وهكذا جاء النّص الروائيّ ليطرح أسئلته الخاصة حول الذات وموقفها من العالم ورؤيتها للواقع الاجتماعيّ، ويبحر في مغامرة إبداعيّة ينقض فيها المسلمات الراسخة في الأذهان و يفكك التقاليد الثابتة ويهدم الأعراف الخانقة.ومن هنا نحاول الكشف عن تجليات الهوية بين المركز والهامش في المنجز الروائيّ (رجالي) لمليكة مقدم .

2 – مليكة مقدم في سطور

روائية جزائرية من مواليد (1949) بالقنادسة ولاية بشار، تلقت تعليمها بمسقط رأسها وفي جامعة وهران درست الطب، انتقلت لتعيش في مونبلييه، لم يمنعها تخصصها العلمي من ممارسة الكتابة الروائية، فقد أصدرت العديد من الأعمال الروائيّة قرن الجراد(1992) الممنوعة

(1993)، أحلام وقتلة (1995)، الرجال الذين يمشون(1997) ، ليلة الصدع(1998) انخطاف العصاة (2003) المتمردة(2004)، أدين بكل شيء للنسيان(2008) وكثيرا ما وصفت أعمال مليكة مقدم بأنها تتعمق في عوالم المرأة الخاصة وتطرق الكثير من الموضوعات بجرأة صارخة تعلن تمردها عن الأعراف الاجتماعيّة، وتنتقد التقاليد العربيّة وتنصب نفسها مدافعة عن حقوق المرأة .

رواية رجالي – محل الدراسة- كتبت بالفرنسية، صدرت (2005)عن دار الفارابي سلسلة فسيفساء قامت بترجمتها للغة العربيّة نهلة بيضون. وصدرت في طبعة ثانية عن المركز الثقافي العربي، ترجمة حسين عمر ، تتحدث فيها الكاتبة عن رجال مروا في حياتها وكان لهم تأثير عليها. لهذا فإن الأحداث تتقاطع بشكل كبير مع تفاصيل حياتها.

3- في رحاب العنوان

يهتم الكاتب بتقديم عمله الروائيّ في حلة بهية، ويحرص أن تكون المصاحبات النّصية تستوفي وظائفها وتؤدي دورها ويأتي في مقدمتها العنوان الذي نراه مفتاحا يمكن من خلاله العبور إلى ثنايا النّص

رجالي عنوان يشد انتباه القارئ ويثير التساؤل في ذهنه؛ من هو هؤلاء الرجال؟ وما علاقتهم بالكاتبة ؟ فإلحاق ياء النسبة بالاسم يترك دلالة ضمنية بأنَّ الكاتبة ستتحدث عن نفسها وهي بصدد كتابة سيرتها الذاتية تريد أن تروي جوانب من حياتها الخاصة، يتضح لنا أنّها عمدت إلى توظيف تداخلا أجناسيا بين فني الرواية وفن السيرة الذاتيّة ، لتخرج لنا عملها في جنس السيرة الذاتية الروائية، وهو كما نلاحظ شكل هجين، ومع ذلك فإننا لا نجزم بذلك لأنّها أردت توصيف عملها بصفة الرواية، فتوسط الغلاف أسفل العنوان لفظ (رواية) حتى يعمل على تعيين النّص ويشير إليه، كما يسعى إلى تمييزه عن نصوص أخرى ، بالإضافة إلى أنّ طبيعة هذا العنوان تؤشر إلى هوية الجنس الأدبيّ الّذي تؤشر إليه " [1]

ويبدو أنّ الروائيّة أرادت أن تزيل الإبهام؛ فجعلت على رأس كل فصل اسم رجل من الرجال الذين عاشت معم، وتركوا آثرا في حياتها واحتفظت لهم ذاكرتها بالكثير من التفاصيل الحياتية ومشاعر تراوحت بين الكره والسخط تارة والمحبة والإعجاب تارة أخرى، لهذا " فلو ترك

العنوان الرئيس مفردا لظل مبهما يحتمل نتيجة سنجدها في جسد النّص، هنا يبدو العنوان الفرعي للوهلة الأولى إضافة لا لزوم لها، ولكنها مهمة في استيضاح الإبهام في العنوان الرئيس ." [2]

يلقي العنوان بظلاله على الرواية، ففي كلّ فصل من فصولها حكاية عن الرجال الذين عشقتهم وعاشت معهم في محطات تمرر شريط ذكرياتها من مسقط رأسها (القنادسة) بالجنوب الجزائريّ؛ فوهران ثم باريس، تلجأ إلى توظيف تقنية الاستذكار الذي جاء بنبرة التحدي للقوة الذكورية المسيطرة على المجتمع والتي تنظر إلى المرأة بدونيّة، فكشفت عن تفاصيل دقيقة عن حياتها وتعلن قائلة " أعشق أن يصحبني الرجال " [3] لذلك جاء الخطاب معبرا في بنيته السرديّة عن الذات الأنثوية بين تهميشها ومعاناتها في ظل المركزية . لتعلن في الأخير عن تمردها وتوقها للحرية التي ترى فيها الخلاص من ربقة التبعية.

4- الهوية بين المركز والهامش في الرواية رجالي

رواية رجالي تمثل أنموذجا للرواية التي كسرت المحظورات وتجاوزت الطابوهات بكثير من الجرأة التي لم تعهدها الرواية النسائيّة الجزائريّة بتلك الحدة، مما يجعل القارئ يتساءل عن سبب ذلك هل لتمرير خطاب ما؟ أم أنها طريقة لجلب أكبر عدد من القراء؟ إننا نرى أنّ حديث مقدم عن هذه القضية واستحضارها بتلك الكثافة يكشف عن رغبتها في إيصال مفهومها الخاص للتحرر من قيود المركزية الذكورية في حياتها؛ فطغيان مقاطع تصور لحظات حميمية لا تمثل "التعالي الرومانسي للجسد، بل تتخذ من الغريزة و الإحساس الملموس و وصف التفاصيل، وسيلة للتعبير عن الجنس، حتى ولو اتخذ هذا التعبير طابع العنف و الممارسة الحيوانية"[4].

ولعلّ هذه الجرأة في طرح مواضيع تتعلق بالعوالم الأنثوية الخاصة والخوض في قضايا كانت ولا تزال من المحظورات في المجتمعات العربيّة عامة والمجتمع الجزائري بخاصة. جعلت الدراسات النقديّة العربيّة لا تعيرها اهتماما ولا تخصص لكتاباتها قراءات تتعاطى مع مضامينها بالنقد والتحليل، مع العلم أنّ سبب هذا الإعراض يرجع في الأساس إلى أنّ القضايا المطروحة فيها تتنافى والمنظومة الأخلاقية المجتمعية وفيها انتقاص للمثل وهدم للقيّم، وتعارض مع رسالة الفنّ الّتي تسعى إلى الحفاظ على سلامة المجتمع ونشر الآداب التي تدعو إلى الخير والحب والجمال، لهذا ينبري فريق من النقاد إلى اختيار المبدأ الخلقي أساسا في تقييم النّص الروائي وإنصافه جماليا.

اشتغلت الكاتبة مليكة مقدم مثل الكثير من الأديبات على موضوعات تهم واقع المرأة وتبوح عن آلامها وآمالها، بغية إثبات الوجود والتأكيد على أنّ للمرأة القدرة على خوض مغامرة الإبداع، غير أنها لم تقف عند عتبات البوح فحسب، بل ذهبت إلى مكاشفة عن جسدها وعلاقاتها الغراميّة والخروج عن سلطة المألوفة؛ وهذا في نظر بعضهم إسفاف كونه أدب مباشر مكشوف بلغة تقريرية تجعل الجسد مركز الحديث للدلالة على الشبق والعهر " فالمبدع هنا امرأة تكتب عن نفسها، عن لقائها بالأخر، عن شبقها وحرمانها، المضاجعة ولونها، هي امرأة تتقمص دور الكتابة، فتستنطق الجسد، وتكشف عن مفرداته، في لغة خاصة، هي لغة حقيقية. "[5]

ومع ذلك لا ننفي أنّ الكاتبة أرادت من خلال هذا إبراز تجربتها ورغبتها في تعرية عالم الانغلاق على الذات الذي عاشته وتريد الخلاص من مركزيته. كما كشفت عبر ذلك عن أنساق ثقافيّة متوارثة في المجتمع حيث يخبو صوت المرأة، لهذا جاءت لتطالب بالحرية في معالجة قضايا ممنوعة. فإذا كان العمل الأدبي المعروض يعرض منظومة قيمية تتعارض مع منظومة القيم لدى قارئه، هنا لا يمكن تجاوز هذه المسألة والقفز فوقها إلى استشراف آفاق المتعة في العمل؛ لأنّ هذا التعارض سيظل حجر عثرة أمام التلقي الملائم لجوانب العمل الفنيّة. لتبقى إشكالية موقع الكتابة الروائيّة بين المحتوى الأخلاقي والمتعة الفنيّة والتعارض بينهما موضوعا للدراسات والبحوث لا يسع المقام للتوسع فيها في هذه الدراسة. ولهذا سنقف في المبحث الآتي عند تجليات الهامش والمركز في رواية رجالي.

1.4. السلطة الأبويّة

تتناول الكاتبة ملامح عن تهميش المرأة في المجتمع الصحراوي الجزائري، وتقدم مثلا عن ذلك والدتها التي ترى أنّها وجدت لأجل تربية الأبناء والقيام بشؤون المنزل، وحُصرت مهامها في الإنجاب وطاعة الزوج و في المقابل لا تتلقى منه أيّ تقدير أو امتنان بل على العكس يواجهها بالعنف وسوء المعاملة ؛كونها تتعاطف معها ابنتها وترغب في إخراجها من قوقعة النظرة الدونية التي تحاصرها من كل جانب، تصف مليكة ذلك بقولها " ما عدت أطيق أن أسمعك تزعق في وجه أمي بسبب (انحرافات سلوكي) يفقدني تلعثمها وندمها صوابي، فأنتفض و أنتصب أمامك، أعني تتكلم؟ ماذا فعلت هذه المرة؟ كنت تستشيط غضبا مخيفا، فأنا أجرؤ على مواجهتك، أنا

ابنتك، خيانة عظمى، كنت ترتجف سخطا وحنقا، وأنا أصرخ صراخا يضاهي صراخك، بل يفوقه حدة، وأقارعك الحجة، فتصعق". [6]

والكاتبة لا تتردد في إعلان التمرد على هذه الأوضاع في سن مبكر وتنتصر للمرأة وحقوقها المهضومة في مجتمع له أعرافه و تقاليده و قيّمه الاجتماعيّة العريقة التي حددت مكانة كلّ من الرجل والمرأة و دورهما في العائلة و فرضت على المرأة أيديولوجيا تقوم على عدم المساواة بين الجنسين " وجعلت من المرأة واحدا من اثنين : إما أما ولودا وزوجة مطيعة لا تخرج من دارها ولا تقصر في خدمة زوجها و رعاية أطفالها و إما جسدا أنثويا و أداة للإغراء والغواية ، وهو ادعاء شائع أدى إلى اعتبار المرأة ادني من الرجل وهو ما يبرر جعلها تحت وصاية الرجل[7]

هكذا تقف الروائية الكاتبة عند قضية هامشية المرأة وضعف مكانتها وقصورها عن اللحاق بالرجل في المجتمع الصحراوي بسبب ما لحق بها من قهر فكري واضطهاد نفسيّ، فلم تكن لوالدتها مثلا دور في تحديد المشروع المناسب في مستقبل بناتها نظر لإقصائها من المشاركة في اتخاذ القرار ببساطة لأنها على الهامش وتبقى السلطة المركزية في يد الوالد.

تصور مليكة مقدم علاقتها بوالدها التي لا يظهر فيها أيّ ود أو دفئ لأنّه في نظرها لا يحسن التعبير عن عاطفته الأبويّة اتجاهها، فهو في نظرها يفضل أبناءه الذكور على بناته تقول: تلفظ أبنائي دائما باعتزاز، ويعتري نبرتك النزق ، والهزء، والبغض ، والغضب أحيانا، وأنت تقول بناتك[8]. وقد استعانت في حديثها عن والدها بضمير المخاطب في حين أنها وظفت ضمير الغائب في الفصول الموالية وهي تتحدث عن شخصيات ذكورية أخرى كانت حاضرة في شريط ذكرياتها في إشارة منها إلى حضوره القوي في حياتها؛ وكأنّها تريد أن تواجهه بخطاب مباشر تعرب من خلاله أنّها كانت ضحية تمييزه بين أبنائه، وأنّها ترفض الإذعان التقاليد والأعراف في مجتمعات شرقيّة تعلي من مكانة الولد وتعطيه حظوة و منزلة مقارنة بالبنت التي تقبع على الهامش تمارس مسؤوليتها بصمت.

وتواصل الكاتبة تعريف القارئ بالرجال الذين مروا بحياتها وهي في مدينتها القنادسة ، تتحدث عن ذكريات الطفولة ، فهي الفتاة المتفوقة دراسيا لم يمنعها هذا الامتياز من أن تكون تصرفاتها مراقبة، وهذا ما أوكله والدها للعم بشير سائق الحافلة تراه مليكة أكثر عطفا وليونة في تعامله معها كونه يحرص على حفظ الأمانة ورعايتها " محبة عميّ بشير مدونة بقدر التقريع الّذي

يقرعه حسب الجدارة المدرسية، أنا المفضلة عنده وهذا هو سبب انتخابه لي لاحتلال المقعد على يمينه."[9]

عطفا على ما سبق ذكره، يتبين لنا أنّ المركزيّة البطريكية مارست سلطتها على المرأة حفاظا على تماسك الأسرة ومراعاة للقيم والمبادئ التي آمن بها الوالد غير أنّ الكاتبة أرادت أن تتخلص من هذه السيطرة التي لا ترى أنها لا تساهم في بناء المنظومة الأخلاقيّة إنما جاءت لتحط من قيمة المرأة. ففي سن الخامسة عشر أصبحت مليكة ملحدة، ظل هذا الأمر سرا إلى أن أعلنته في كتابها، تقول:" أنا ملحدة منذ بلغت الخامسة عشرة، كم يريحني أن أستطيع أخيرا إعلان ذلك والمجاهرة به، فذلك الاعتراف محفوف بالمخاطر في مجتمع من أقل المجتمعات تسامحا". [10]يبدو أن الساردة وجدت الكتابة متنفسا لتكشف عن صورة من صور تمردها عندها بالأحكام الدينيّة والشرائع الاجتماعية عرض حائط معلنة عن إلحادها.

2.4. التمرد على السلطة الدينية

تواصل الكاتبة الحديث عن تحدياتها للواقع الاجتماعي، وتجاوزها للمفاهيم المتعرف عليها والتي توارثتها الأجيال عن مفهوم الشرف، لهذا تستمر في مقاطع سرديّة مختلفة من فصول الرواية في عرض جوانب من حياتها الجنسيّة وتحول دفة السّرد من ضمير المتكلم لضمير الغائب تقول الراوئيّة لأبيها : «فارقتك لأتعلم الحرية، الحرية حتّى في عشق الرجال. وأدين لك بأنّني لطالما عرفت أن أنفصل عنهم حتّى حين كنت مفتونة ومتدلهة بهم".[11] تنطلق الكاتبة في سردها من موضع المرأة المقهورة التي تعاني الظلم والتهميش إلى موقف إثبات الذات وكسر حواجز الصمت والتعبير عن ممارسات دخيلة عن المجتمع وعن سلطته المركزية، فحين تنتقل إلى وهران، وفي الإقامة الجامعية تعبر عن بعض تصرفاتها المنافية لتعاليم الدين لتخرق أحكامه صراحة، تقول " أشعر بالنشوة لأنني لست مضطرة بعد اليوم لإخفاء شيء أتناول الطعام على شرفة غرفتي في السكن الجامعي خلال شهر رمضان، حين يكون الطعام انتصارا في بعض المعارك، أتلذذ به في الجزائر. شرعت أدخن في المستشفى، وفي المدرجات، وفي المطاعم، بدافع الوقاحة، ليعلم الجميع أنّ لا شيء محظور عليَّ، لأقول سحقا لكل القيود فاستهلاك كلّ الحريات أخيرا نشوة لا مثيل لها. "[12] وتتجاوز الساردة حدود الاختراق إلى الحديث عن حرية المعتقد حيث تفاجئ القارئ بأنّها ملحدة منذ سن الخامسة عشر في بيئة محافظة متدينة، وتستمر في إرباك القارئ وهي تردد فكرة

التحرر من النظم الاجتماعيّة وتقاليدها البالية مواجهة بذلك سلطة المركز وذلك حينما تقرر الزواج من يهودي وتبرر دافع ذلك بأنّه شكل من أشكال الوقاحة وإثبات حضور الذات الأنثوية في حالات لم يعهدها المجتمع الجزائري.

هكذا تجاهر السّاردة بخروجها عن منظومة القيّم الأخلاقيّة، وهو ما نراه انفلاتا أكثر من تحرر حيث نراها لا تتردد عن الإفصاح عن رغبتها في إقامة علاقة مع شخصية (سعيد) خارج ما هو متعارف عليه في إطار مؤسسة الزواج، فالقران في اعتقادها يقتل مشاعر الحب والودّ بين الزوجين لهذا تخوض في تفاصيل العلاقة كما تصرح أنّها كانت صاحبة المبادرة تقول :" "إننا في غرفتي بالسكن الجامعي، يقول لي سعيد المرعوب والمضطرب: أحبك وأحترمك، لا يمكن أن أفعل بك هذا. وقصده من هذا مضاجعتي الكاملة، فيما بعد، حين غمرتنا الشهوة تمتم؛ سوف نتزوج وعندها نستطيع ، أريد أن أفعل ذلك مع كل مراسم التبجيل؟ ما معنى التبجيل؟ مباركة الدين والمجتمع ورقية من الزغاريد السادية! ولكني لا أرغب على الإطلاق في الزواج! أريد أن أحصل على الحبّ بدون هذه المهزلة، بدون تحقيق، لشدّة ما ارتسم الهلع على وجه سعيد، أشفقت عليه، لم أفهم يوما بصورة فضلى مدى خضوع الرجال—رغم المظاهر– قيود التقاليد. "[13] التي تكبل في نظرها حرية المرأة في المجتمعات الشرقيّة باسم العادات والتقاليد ، ولا مناص من التخلص منها.

لا تخفي السَّاردة/ الكاتبة فرحتها وشعورها بالنشوة، وهي تكسر المحظور، و تبتهج لخرق الأعراف السائدة تقول : " أخيرا هزم اضطرام الرغبة مكابداته البطوليّة ذلك الألم الخفيف، وتلك الفرحة! الفرحة! أجل، أكثر من النشوة، الابتهاج بانعتاقي من ذلك المحظور الأكبر، رغم النواهي العائليّة والاجتماعيّة، لن يلمح أحدهم أثر دمي على ملاءة أو قميص، لن يستعرضه أحدهم مثل ختم كرامة عشيرة بأكملها، سوف أغسل دمي لوحدي، أريد أن أغسل دمي من كلّ ما يلطخ حياة امرأة، أشعر بقهقهة مجلجلة تتصاعد من أعماقي"[14] هكذا تعرب الساردة عن رفضها لمراسيم الاحتفاء بشرف المرأة بطريقة لا تخلو من سخرية لاذعة .

3.4. سلطة الرجل الغربي

تستهل مقدم فصلا تتحدث فيه عن حضور الرجل الغربي في حياتها بعنوان "ميلي إلى الرجال الشقر"، حيث تصور صديقها الفرنسي الذي عاشرته فترة وانفصلت عنه وسافرت إلى باريس لتشتغل في إحدى مستشفياتها تقول : "أناوب في المستشفيات بالأسود، أتخذ عشاقا لليلة

واحدة، أرفض أن أقابلهم ثانية، أرفض أن أحدثهم عن الجزائر، على أن أنسى الكثير، فأبادر إلى طرح الأسئلة، أشعر بالنهم لإدراك العلاقات بين الرجال والنساء، واللعبة السياسية، وقواعد الديمقراطية، وواقع الحريات في فرنسا، لا أستطيع الاستغناء عن الرجال، وفي الوقت نفسه، ألفظهم حالما يحدثوني عن الحب، أشهر مسدس كلمي، لا أريد سوى الشهوة واللذة. يبلغ تحري الجنس وتفجره الذروة، إنه هجوم مضاد للجسد الذي يرفض الفطام، الذي يجابه خسة المشاعر بزهو الشبق، يكرر اختبار النشوة رفضا للكآبة، جسد رجل للرحيل، للبقاء على قيد الحياة. " [15] عند انتقال مليكة للعيش في فرنسا تجد أنّ المركزية الذكورية لا تتحكم بحياة المرأة نظر لاختلاف العادات والقوانين، ومع ذلك ترى أنّ الانتقام من الآخر لا يكون إلا المعاشرة الجنسيّة وهكذا تتلاشى مقاييس الثقافة الأصلية للسّاردة لتتبنى سلوكات يراها القارئ دخيلة عن المجتمعات العربيّة ذلك أنّ " كل ثقافة تمارس الخروج الخلاق، وتبني بلاغة الحداثة والحرية و الانعتاق، وتسعى إلى خلخلة المركز وزحزحته، لا لمجرد أنه مركز وإنما لتؤكد أن ثقافة الفرد الواحد والذات الواحدة والثقافة المطلقة، تقف في وجه الدخول في العصر." [16] فقد منحها التّعرف على الثقافة الغربيّة مكاسب ساهمت في تطوير شخصيتها فقد وجدت أنّ شخصيّة الدكتور شال المثقفة والمتزنة والمسامحة مع الآخر، فما قدمه لها من مساندة ورعاية من دون مقابل، فكان ملهمها في الاشتغال بمهنة الطب؛ تصف علاقتهما قائلة: " تفاهمنا، أنا والدكتور شال كل التفاهم لا أرغب بإقامة علاقة جنسية معه، على الإطلاق ، إنني مغرمة به كإنسان يوما ما، سأصبح طبيبة، أجل طبيبة مثله " [17]

لعل رحلة مليكة مقدم في البحث عن الحرية و التّمرد على التّقاليد العامّة، جعلها ترفض الخطاب الرسمي الذي يؤطر العلاقات كونه يقوم على أسس وقواعد، فمؤسسة الزواج رابطة قدسية نظمت دعائمه الأديان لأجل بناء مجتمع تسوده أواصر المحبة والاحترام من دون اختزاله في رغبات جنسية غير أن مقدم جعلت من تلك العلاقات المستهجنة اجتماعيا طريقا لحياتها وهي في روايتها تشرح بإسهاب وبكثير من التفاصيل تلك العلاقات العابرة، والتي لا ترتكز إلى أيّ سند أخلاقي يمكن الرجوع إليه.

لا ننكر أنّ الكثير من الكتابات الروائية النسائيّة في العقود الأخيرة ركزت على الجنس وعلاقات عاطفيّة عابرة يغرق السرد في تفاصيلها حتّى أنّه صنف في خانة الأدب المستعجل ولكنه مع مليكة مقدم أخذ بعدا آخر تحاول لتبين قدرتها على الاستمرار دون أن يكسر الرجل كبرياءها

فقد تعلمت من صدماتها وأزماتها أن تقف صامدة أمام الهزائم فتظهر للقارئ تلك " مشاغبة ناجحة، تستظهر مشاعرها العنيدة المتحفزة، وتتحيّن الفرصة لانتزاع الآخر العزيز من حياتها، وخوض مغامرة عاطفية جديدة تكفل لها حلقة مستمرة من الحرية. وتلك الحرية تتجسّد في الجنس أولاً، كأنّها في كل مرة تعيد الإصغاء فيها إلى ذلك النداء البري الطالع من الأعماق، ليصبح عنواناً يختصر عوالمها.[18] بيد أنَّ " إشاعة الأمور على الصورة الّتي ظهرت عند مليكة يؤدي إلى خلخلة الأسس التي يقوم عليها أيّ مجتمع، وغباء أن يعتقد بعض النّاس أنّ المجتمع الغربي يقبل ما تقوم به مليكة ويباركه. المجتمع الغربي أيضا لديه معايير أخلاقية قد يتساهل فيها مع بعض الناس، لكنه يتشدد جدا حين يتصل الأمر بسلامة المجتمع،" [19] فالقيم الأخلاقيّة تحفظ النظام وأي مساس بها يؤثر على المنظومة الاجتماعيّة وهذا الأمر تشترك فيه المجتمعات الغربيّة والغربيّة على حد السواء.

نستشف أنّ التّمرد الّذي أشهرته الكاتبة جاء ليواجه خطاب المركز الذي " يمثل خطابا رسميا لا يقيم وزنا للكيانات الأخرى" [20]؛ لأنّه يمتلك القوة ويتسم بالقدرة لمواجهة المجتمع لهذا وجاءت ردود مليكة مقدم تصور عزيمتها القوية في تحقيق طموحها العلمي ومواجهة الانكسارات المتتالية التي لم تتمكن من طمس معالم شخصيتها المتمردة والتي ترغب في التعبير عن المهمشات حسب رأيها في ظلّ سيادة ثقافة ذكوريّة تتحكم في المجتمع الصحراوي وترى أنّه من الضرورة التخلص منها.لهذا تقف في الطرف المضاد من صراع المركز والهامش وإن كان الحضور النسوي قليل في الرواية مقارنة بالحضور الرجالي ، فإنّ الشخصية النسوية – والدتها أو أختها – ظهرت بمظهر المقهورة الضعيفة التي لا تملك حق التعبير واتخاذ القرار، تعيش الفقر والحاجة لا تنعم بالحرية

إنّ رفض الذات للدخول في علاقة طبيعية يجعلها تعيش في عالم من الضياع، وهذا ما يبرر علاقاتها غير المستقرة، فالرجل الغربي عندها لا يمارس سطوته واضطهاده لهان بل شاركها أفكارها وتطلعاتها وكان في أحايين كثيرة محققا لطموحاتها ورغباتها باعثا للفرح والأمل وهذا ما نلمسه من قولها :" مع موص، تعلمت أن أضحك، أن أضحك حتى تسيل دموعي حين يهرج ويسترسل في دعاباته اللاذعة حول مجتمعنا أشاركه الضحك وتسعدني خفة ضحكاتنا على الهروب من التشنج الجزائري." [21] يتضح لنا إصرار الكاتبة على إماطة اللثام عن معاناة المرأة في المجتمع الجزائري وما يحمله في نظرها من ذهنيات معارضة لكل ما تحلم به، فلجأت إلى استعمال أسلوب أقرب إلى السخرية لإدانة السلطة المركزية و الانتصار للمرأة المقهورة.

هكذا يتجلى لنا الصراع بين المركز والهامش بين الأنا الساردة والأخر المضطَهِد ، وهي مواجهة " بين عالمين عالم بشري خاضع لمقتضيات الحياة الإنسانيّة العاديّة في مقابل عالم آخر يتجاوزها ويجسد نقيضا لها هو أقرب إلى الطبيعة المتوحشة التي تأبى الترويض وتسلك سلوكا مبنيا على الغريزة وعلى الرغبات العنيفة المتسلطة "[22]

5 – خصوصية السرد في رواية رجالي

تتسم البنية السردية في رواية رجالي بحفاظها على ترابط عناصرها البنية الزمن و المكان والشخصية في بنية متكاملة وعلى الرغم من أنها رواية مترجمة إلا أنّ لغتها حققت هذا التلاحم وقد ساهمت بدورها في تبيان مستوى تفكير الشخصيّة المركزية والأخرى المهمشة

وقد تراوحت اللّغة بين التقريرية المباشرة؛ فتوحي بواقعية العمل خاصة في بعض المقاطع السردية التي تعرض فيها الكاتبة حقائق وتسرد أخبارا مثل ذكريات طفولتها، وفي أحيان أخرى ترتقي بمخيالها السردي لتعرض عبر الصور الاستعارية وأساليب مجازيّة توقع القارئ في دهشة من مستوى الجرأة في كشف الستار عن موضوعات حميمية تتعلق بعلاقة الساردة بالآخر – الرجل – لهذا اشتغلت الكاتبة على تعزيز البعد الفني التأثيري للمقاطع السرديّة على فكر القارئ لترسخ في ذهنه التمرد على التقاليد وخرق المألوف حتى أن بعض عباراتها جاءت صادمة لأفق انتظار القارئ عندما تعلن أن معاناة المرأة وشعورها الدائم بالقهر والدونية واختزال دورها الاجتماعي في الإنجاب فقط، "قتل رغبتها في الأمومة إلى الأبد " [23]

أمّا إذا ما التفتنا إلى الوصف فإنّه جاء ملتحما مع السرد، حيث ركزت الكاتبة على توظيف المشاهد السردية لتوقيف عجلة السرد تارة وتريث لإعطاء القارئ فرصة ليكون فكرة عن بنية المكان أو بناء الشخصية " ويكشف عن العلاقة بينها وبين هذه الكائنات، كما يسهم في تطور الحدث، وبه تنسجم كلّ العناصر المكونة للنّص الروائي "[24]

نلمس أن تتبنى رواية رجالي خطابا مضادا للخطاب الرسمي ويتماشى معه تنوع في الفضاء المكاني حيث كان انتقال الساردة/ الكاتبة من القنادسة إلى وهران ثم باريس تأثيره على شخصية السّاردة فكلّ مكان له خصوصية لهذا لم تركز على الملامح الجغرافيّة، وإنما فضلت أن ترسم الأبعاد الرمزية وتأثيرها في تحديد تفاصيل هوية الشخصية المحوريّة.

وأكدت أنَّ البنية المكانيّة حاضنة للوجود الإنسانيّ؛ فإمّا أنّها تحافظ على القيّم أو أنَّها تشكل عائقا أمام حرية الشخصيّة، القنادسة كانت بالنسبة لها سجن لم تتمكن فيها من القيام بالأشياء التي ترغب فيها، وفي وهران وجدت متنفسا، هكذا كان السفر عندنا بمثابة الحل للخروج من الدائرة الضيقة التي رسمتها لها عائلتها، وبالتالي فإنّ الأمكنة في الرواية فاعلة محفزة " لهذا اتجه الكثيرون إلى الربط بين ألوان النّاس وبين الأمكنة التي تختارهم هذه الألوان تبدو مرتبطة بمستوى مساق الأمزجة التي تشكلت بفعل عوامل مكانيّة تأثرت وأثرت وتراكمت " [25]

من الملاحظ أنّ الروائيّة سعت إلى أن تقدم عملها في حلَّة بهيَّة تختزل فيها تلوينات متباينة قصد تشكيل بنية سرديّة مخالفة للمألوف، ويمكنها أن تحقق متعة فنية للقارئ وتكشف عن مرجعية فكرية تريد الكاتبة من خلالها تمرير خطابها لهذا نجدها تركز على توظيف باستمرار الثنائيّة الضديّة بين الجنوب والشمال، المركز والهامش، القوّة والضعف، الأنوثة والذكورة، ومع ذلك فإنّ البحث عن آليات التجريب في مكونات السرد لم تشكل ظاهرة، وإنّما بقيت محافظة على البنيات التقليديَّة المتناسقة بينها من دون اللجوء إلى توظيف الرمز أو الأسطورة أو تقديم الأبعاد العجائبيَّة ومرد ذلك رغبة الكاتبة في تشخيص تشظي الذات بين مركزية السلطة الذكوريّة و هامشية المرأة بلغة تستوعب أفكار الروائيّة ورؤيتها للواقع الاجتماعيّ.

6- خاتمة

نستنتج مما سبق أنّ مليكة مقدم قدمت في روايتها (رجالي) صورا للمركزيّة الذكوريّة وكشفت عن شخصيتها الرافضة للتقاليد المتمردة على الأعراف الراغبة في التحرر من القيود الاجتماعيّة والأخلاقيّة الّتي جبلت عليها المجتمعات، وحتى ترضي الأنا الهامشيّة وتزيل الشعور بالدونيّة أقامت علاقات حميمية خارج مؤسسة الزواج أثناء دراستها الجامعيّة وبعد انتقالها للعمل طبيبة في باريس لينتهي بها المطاف امرأة وحيدة تعاني العزلة والاغتراب .

لقد أرادت الكاتبة تسليط الضوء على واقع الشخصية النسوية المهمشة في المجتمع في مقابل المركزية الفكرية والثقافية التي تكرس سيطرة الرجل، فظهرت بصورة المتمردة الرافضة للقيم وعابثة بالمثل والمبادئ، وهذا ما نراه لا مثل تشظي هوية بين المركز والهامش بقدر ما أنّه انفلات يؤثر على سلامة المجتمع .

هوامش:

1 – شعيب حليفي : إستراتيجية العنوان في الرواية العربيّة ،مجلة الكرمل، ع46، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، 1992، ص 91.

2 – محمد الهادي المطوي: شعرية عنوان كتاب الساق على الساق فيما هو الفرياق، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 1، مج 28، 1999، ص:457 .

3– مليكة مقدم : رجالي، ترجمة نهلة بيضون، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط ،1س ،2007 ، ص 13.

4– محمد برادة: الرواية العربية و رهان التجديد، دار الصدى، دبي ، 2011، ص. 60

5– ينظر عبد العاطي كيوان: أدب الجسد، بين الفن والإسفاف، مركز الحضارة العربيّة، ط1، 2003 ص57.

6– مليكة مقدم : رجالي، ص21.

7 – إبراهيم الحيدري: النظام الأبوي و إشكالية الجنس عند العرب ، دار الساقي، بيروت ، ط1 2003، ص 03.

8 – مليكة مقدم: رواية رجالي، ص 11.

9– المرجع نفسه ، ص:3

10– المرجع نفسه ، ص 70.

11– المصدر نفسه ، ص:9.

12 – المرجع نفسه ، ص71.

13– المرجع نفسه ، ص64.

14 – المرجع نفسه ، ص64

15– المرجع نفسه ، ص:88.

16– ينظر مجموعة من المؤلفين : المركز والهامش في الثقافة العربية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، صفاقس، تونس، 1995ص .14

17 – مليكة مقدم: رجالي ، ص: 58.

18 – نوال العلي :مليكة مقدّم في «رجالي» يوميّات مستعجلة عن جرح دفين اسمه الحرية ، 22 تشرين الثاني 2007 ، رابط الموقع

https://al-akhbar.com/Culture_People/18060

19– أحمد صبرة: لمليكة مقدم تكتب سيرتها الذاتية عن رجالها ، 10-08-2008، https://middle-east-online.com

20- بكر آدم إسماعيل جدلية المركز والهامش قراءة جديدة في دفاتر الصراع في السودان، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، رابط الموقع:
https://fr.scribd.com/user/233019283/Abbakar -Ismail

21 - مليكة مقدم: رجالي، ص:103.

22- عبد الحميد بورايو الأنا والآخر العبور ما بين في رواية إغفاءات حوّاء لمحمّد ذيب ، مجلة بحوث سيميائية ، ع2، 2006،ص: 22.

23- مليكة مقدم: رجالي، ص:20.

24- عبد القادر بن سالم : بنية الحكاية في النّص الروائي المغاربي الجديد، ، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2013، ص:156.

25- ينظر عبد الحميد المحادين : جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربيّة للنشر والتوزيع، ط1، 2001، ص:19.